على الغلاف

وداعاً نور الشريف...

من السيّدة زينب إلى عرش الشاشة العربية

القاهرة ــ **علا الشافعي**

يقول مولانا جلال الدين الرومي: «ليس في العالم خيال دون حقيقة». مقولة رافقت نجمنا الكبير نور الشريف (1946 ـ 2015) طوال مشواره الذي طواه الموت أمس. رحل الممثل المعروف في «مستشفى الصفا» في القاهرة بعد معاناة شديدة مع المرض، إذ كان يعاني من سرطان الرئة، وخضع لجلسات علاج عدة في أميركا.

> كان الشريف دائماً يقف على أرضية صلبة لينطلق منها ويحلق في عالم الخيال ويبدع، مهما كان شكل الإبداع. بداية من لعب كرة القدم في شوارع «السيدة زينب»، ذلك الحي القديم والأصيل الذي انعكس على كل تفاصيل شخصيته، مروراً بموهبته في التمثيل والإخراج، وحتى في اكتشاف المواهب. في هذا المجال، امتلك نور الشريف عين خبير في الألماس، ورحابة تبنّي المواهب الجديدة والصبر على صقلها. هذا ما تؤكده مكتبته الخاصة في الركن المميّز في منزله الذي كان يجلس فيه ليقرأ ويتأمل.
>
> من يخطو داخل هذا الركن سيعرف أكثر كيف امتزجت الموهبة بالحس الإنساني. فالجدران المصنوعة من خشب معشّق ذي طابع فني فريد، تضم كلمات لابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهما من المتصوّفة، وهو ما يعكس الجهد الذي بذله الممثل المصري ليصل إلى ما يُعرف بـ«فضيلة الاستغناء» من خلال عشقه للتأمل. هو يتحدّث متى كان للحديث ضرورة، ويفضّل الإنصات. تلك عادته منذ الشباب، حين كان سلاحه الصمت والتأمل في مواجهة ما لا يرضيه.

> أوّل أدواره السينمائية كان مع المخرج حسن الإمام في «قصر الشوق» لنجيب محفوظ

ويبدو أنّ الفتى العاشق لكرة القدم والتمثيل في شوارع مصر القديمة، كان يدرك ضرورة أن يحلّق بخياله. رغم يتمه، عرف أنّ اللحظة ستأتيه ويملك الخشبة، سواء خشبة الملعب أو المسرح. كان يعشق الكرة والفن، لكن الشغف الأكبر كان لخشبة المسرح. دخلها وقدّم تجربته الأولى «الشوارع الخلفية»، ومن بعدها انطلق كموهبة واعدة، مع كبار المخرجين.

محمد جابر محمد عبدالله أو نور الشريف هو واحد من نجوم الفن العربي والمصري الذي يمتلك تاريخاً شديد الثراء والتنوّع، ويدرك جيداً أهمية ودور الفن، وضرورة التنوع. لذلك، فهو من النجوم القلائل الذين نجدهم يمتلكون مشواراً حافلاً بأفلام تجارية سارت جنباً إلى جنب مع الأفلام ذات القيمة الفنية، التي تعد من كلاسيكيات السينما المصرية والعربية، إضافة إلى مسرحيات ومسلسلات لا تقل تنوّعاً. عمل نور الشريف مع معظم المخرجين، بدءاً من حسن الإمام ومحمد فاضل، وداود عبد السيد وعاطف الطيب ويوسف شاهين وسمير سيف، وصولاً إلى أمير رمسيس آخر المخرجين الشباب الذين تعامل معهم في فيلمه «بتوقيت القاهرة» (2015).

ومن يتأمّل وضع السينما المصرية، سيجد أنّ تجربة جيل الثمانينيات شديدة التميّز ويصعب تكرارها، ليس فقط على مستوى الإنتاج بل لأنّها قدّمت أفضل الإنتاجات لمخرجين مثل عاطف الطيب، وداود عبد السيد، وعلي عبد الخالق، وخيري بشارة، ورضوان الكاشف، وشريف عرفة. وساهم نور في إطلاق مواهب البعض وقدّمهم وأنتج لهم أولى تجاربهم السينمائية، ومنهم سمير سيف ومحمد النجار وداود عبد السيد ومحمد خان. لذلك وكما قال عنه الكاتب الكبير خيري شلبي عندما قرّر أن يصف موهبته: «رق الإناء وراقت الخمر... فتشابها واختلط الأمر... فكأنما خمر ولا قدح... وكأنّما قدح ولا خمر». هنا، يقصد شلبي أنّ موهبة نور الشريف تماهت مع الفن وصار كل منهما مرادفاً للآخر. لذلك فإنّ أي قراءة فنية لسينما نور الشريف، والمرور على ملامح البطل الذي قدّمه في أفلامه التي تجاوز عددها الـ 200، إنّما هي أيضاً مراجعة اجتماعية خلال أربعة عقود. نلاحظ تنوّع الشخصيات التي جسّدها الفتى البريء المكافح ضحية الفساد في بعض الأحيان، أو «الفتوّة» الشعبي أو المواطن المقهور ضحية الانفتاح الاقتصادي الذي يقرّر أن يأخذ حقه بيده، أو الشاب السياسي الحالم الذي يفرمه نظام ديكتاتوري مستبد. لذلك، فمراجعة سينما نور الشريف في جزء كبير منها مراجعة أيضاً للتاريخ السياسي والاجتماعي للحياة المصرية والعربية، ومنها مثلاً دور «حسن سلطان» في فيلم «سوّاق الأوتوبيس» (1982) الذي يعد إحدى أيقونات السينما العربية. القصة لمحمد خان والسيناريو والحوار للكاتب بشير الديك، والإخراج للمبدع عاطف الطيب الذي شكل مع بشير ونور ثالوثاً يقدّم سينما متفرّدة في مفرداتها الإبداعية. وقد أدّى نور الشريف دور «حسن سلطان» باقتدار شديد وتماهٍ مع الشخصية إلى درجة التألق، ما أسهم في حصوله على جائزة «مهرجان نيودلهي الدولي»، ليكون أوّل ممثل مصري ينال جائزة دولية. وكان الفيلم من أعمال الواقعية الجديدة في السينما المصرية، وحمل إدانة كاملة لعصر الانفتاح وتآكل الطبقة المتوسطة، كما أنّه انتهى بصرخة نور الشهيرة «يا ولاد الكلب» في إدانة لكل ما يحدث من تحوّلات اقتصادية وسياسية واجتماعية.

واستمرت رحلة الإبداع بين نور وعاطف وتوالت الأعمال المهمة ومنها «الزمار» (1985) و«ضربة معلم» (1987). الأوّل مأخوذ عن مسرحية «هبوط أورفيوس» للكاتب تينسي ويليامز وسيناريو رفيق الصبان وعبد الرحيم منصور، والأغاني لبليغ حمدي. يتناول الشريط قصة الشاب الطالب في كلية الهندسة الذي يقدّم مسرحية تجعله مُضطهداً ومُطارداً من قبل السلطة، ويعد محاولة أخرى من عاطف الطيب ونور الشريف لفضح الفساد أوّلاً ثم الثورة عليه.

وكما شكلت سينما عاطف الطيب ونور وبشير حالة خاصة، نلاحظ أيضاً أنّ نور الشريف هو أكثر فنان قدّم أفلاماً للسينما العربية مأخوذة عن روايات لنجيب محفوظ. ولم تكن مصادفة أنّ أوّل دور يقدّمه نور في السينما مع المخرج حسن الإمام كان «قصر الشوق» لنجيب

في إدارة يوسف شاهين

بين المخرجين الكبار الذين عمل معهم نور الشريف على امتداد نصف قرن، و200 فيلماً، من حسن الإمام إلى سعيد مرزوق، مروراً بعاطف السيد وداود عبد السيد ومحمد خان، يبقى لقاؤه السينمائي بيوسف شاهين استثنائيّاً. إذا كان النجم الإيطالي مارتشيللو ماستروياني بالنسبة إلى المايسترو فدريكو فلليني، بطله المضيء وصنوه ومجسّد شخصيّته في فيلم «ثمانية ونصف» تحديداً، فإن النجم المصري نور الشريف جسّد بمهارة نادرة صورة المعلّم يوسف شاهين على الشاشة، في «حدّوتة مصريّة» (1982)، الجزء الثاني من ثلاثيته البيوغرافيّة (بين «إسكندريّة ليه؟» و«اسكندريّه... كمان وكمان»). تقمّصَ نور، بأداء مدهش، شخصيّة المخرج الكبير، بالنظارتين الشهيرتين والسيجار الأبديّة، في مرحلة النضج الفنّي والسياسي: شاهين رجل الرهانات الطموحة، والخيارات القوميّة الجذريّة التي لازمته حتى الرمق الأخير. هذا النفس النضالي نفسه، طبع مسار نور الشريف الذي كنّا نجده داخل مصر وخارجها، على خطوط المواجهة في كل المبادرات التضامنيّة والتحركات الشعبيّة. تحديداً قضيّة فلسطين: «ناجي العلي» عاطف الطيّب (1992) الذي كلّفه الكثير، وقبلها بعامين مسرحيّة «القدس»، على سبيل المثال... وأيضاً فكرة الممانعة ومواجهة الاستعمار التي كانت ذروتها دوره في سجن أبو غريب العراقي («ليلة البيبي دول»، عادل أديب/ 2008). وبعد خمسة عشر عاماً، حين خاض يوسف شاهين معركة العقلانية والتنوير، والمد التكفيري في بداياته، لم يجد أفضل من نور الشريف لتأدية دور ابن رشد على الشاشة، فكان فيلم «المصير» الذي يعد ذروة في مسيرة يوسف شاهين السينمائيّة.

شخصية «ابن رشد» في فيلم المصير